

شخصية المرأة في كتاب الاسلام

بقلم الدكتور عائشة عبد الرحمن

استاذة الدراسات القرآنية بدار الحديث الحسنية
واستاذة التفسير بكلية الشريعة بفاس

سبق أن قدمته في كتابي عن الشخصية
الاسلامية ، لا يختص بها رجال دون نساء .

وانما اتجه هنا الى تبين الملامح القرآنية
لشخصية المرأة بوجه عام ، بما تمثل من شخصيتها
في الدين بعامة ، اعتبارا بما في القرآن من جوهر
الدين كله ، وما استصفاه من التاريخ الدينى
لل بشرية في خبر الامم والملل قبله . فالذى فيه عن
المرأة ، يعتبر به في المفهوم الدينى لشخصيتها
بوجه عام .

في القرآن الكريم شخصيات نسوية ذوات
عدد ، في شتى مراحل تطورها ، وعلى تباعد
عصورها وتباين مجتمعاتها واختلاف عقائدها
وملها ، ومنها جميعا تتكافل الصورة العامة
لشخصية المرأة في ختام رسالات الدين .

ومما يؤكد ملحظ العموم ، ان القرآن على
كثرة الشخصيات النسوية فيه ، لم يتعلق بذكر
اسمائهن ، باستثناء السيدة مريم المصطفاة عليها
السلام كما لم يتعلق بتحديد ازماتهن او تفصيل

« ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم
ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة
ان في ذلك لايات لقوم يتفكرون » صدق الله العظيم
ليس مجهولا ما للمرأة المسلمة في الشريعة
من حقوق وواجبات ، لعل منها ما لم تصل اليه
المرأة في المغرب الحديث . ولعل منها كذلك ما لم
تتمثله بعض المجتمعات الاسلامية ولم تبلغه المرأة
المسلمة الجديدة .

الذى احسب مجهولا او يكاد ، هو ما
يتعلق بشخصية المرأة في القرآن الكريم فما يزال
حتى اليوم في حاجة الى وضوح رؤية لهذه
الشخصية ، ، لنرى الى اى حد تصح الفكرة
العامة عنها ، فيما نقرأ لبعض مشهورى الكتاب
ممن يخوضون بغير علم في قضايا الاسلام والمرأة .
وذلك ما احاول ان اقدمه في هذا المقال
الموجز .

ولست فيما اتناول من الموضوع اقصره على
شخصية المرأة المسلمة ، فالذى يقال فيها هو ما

القرآنية على الاطلاق .

الذى فيه ينصه المحكم الموثق الذى لا تتعلق به ادنى شبهة من تحريف او تبديل ان ربنا سبحانه وتعالى خلقنا من نفس واحدة :

« يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » (2) .

ويؤيد هذا الفهم لصريح النص القرآنى فى خلقنا من نفس واحدة . ان القرآن الكريم لا يستعمل لفظ زوجة وزجات فى مقابل زوج وازواج من الرجال ، وانما هن زوج وهن ازواج ، مثلما هو زوج لها وهم ازواج ، تقريراً لكونهما شطرى نفس واحدة ، ليس شطر منها مختلفاً عن شطره الآخر ، او فرعاً من اصل ..

وهذه هى آية الزوجية فى كتاب الاسلام : خلق الله الزوجين من نفس واحدة فهما شطران متكاملان . لا تقوم حياة البشرية بانفصالها ، ولا يحقق احدهما وجوده بمعزل عن شطر نفسه : تكاملاً وتآلفاً وسكناً ومودة ورحمة :

« ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان فى ذلك لايات لقوم يتفكرون » - الروم 30 -

للاسلام اذن ان يمن على المرأة بتقرير كمال انسانيتها : خلقت هى والرجل من نفس واحدة .

واخرى مما يمن به القرآن علينا ، ان براها مما رسخ فى الفهم العام من حملها وزر الخطيئة الاولى ، بان كانت ذريعة الشيطان الى اغواء ابينا آدم حتى اخرجته من الجنة .

وقد نعلم ان لعنة هذه الخطيئة ظلت تلاحق الاجيال من بنات حواء . وما نزال حتى

تراجم حياتهن ، تركيزاً على ما هو مناط العبرة وجوهر الحدث او الموقف .
(1) المرأة ، اما وزوجا :

وابدا بأبم البشرية ، فأطيل تدبر ما فى القرآن عن تلك المرأة الاولى التى نمت اليها جميعاً بأصل ميراثنا وراسخ فطرتنا ، مهما تفاوت دماؤنا وأعرافنا وانماط شخصياتنا وتتباعد عصورنا وبيئاتنا .

الفكرة الشائعة من قديم الزمان حتى اليوم ، ان حواء الام مخلوقة جانبية من ضلع لآدم ، وليست مثله كياناً كاملاً .

ولا يشغلنى ما جاء من ذلك فى (اسفار التكوين) بل الذى يشغلنى ان مسألة خلق المرأة من ضلع آدم ، من المسائل الخلافية بين علماء السلف ، على ما بينه الفقيه الاصولى « الامام الماوردى » (1) .

والخلاف فيها ينول الى ما روى من قول نبينا عليه الصلاة والسلام ، ان المرأة خلقت من ضلع اعوج ، ان حاولت تقويمه بالشدة كسرتة .

ولم افهم الحديث الا حملاً على التعبير المجازى للترفق فى معاملة النساء ، وليس المراد منه - والله اعلم - تقرير اصل الحلقة ومثله فى الحديث الصحيح قوله عليه الصلاة والسلام لحادى ركبته : « رفقا بالقوارير » لم يعن صلى الله عليه وسلم انهن خلقن من مادة القوارير ، بل عنى رقة مزاجهن ورهافة وجدانهن .

وفيما يخص القرآن الكريم - وعنوان المقال مقيد به - لا نجد فيه اشارة من قريب او بعيد الى خلق المرأة من ضلع ايمن او ايسر ، بل لفظ الضلع والضلوع ، ليس من معجم اللفاظ

(1) الماوردى ، أبو الحسن على بن محمد : كتاب اعلام النبوة ، ص 41 ط بيروت 1993 .

(2) آية النساء 1 ، ومعها آيات : الاعراف 98 والانعام 189 ..

كل منهما مسؤول عن عمله وكسبه وسعيه ،
محاسب عليه ثوابا ومحقبا (3) .

مع أم البشرية ، يقدم لنا القرآن في أمهات
الانبياء عليهم السلام ما نفهم منه موضع الامومة
في ختام رسالات الدين وعلى السياق الزمني للتاريخ
الديني ، اتدبر ما في القرآن عن اولئك الامهات ،
فأراه ناط بالام الدور الجليل في حياة الذين اصطفاهم
الله سبحانه وتعالى لرسالاته ، وخصها برعايتهم
وتربيتهم في مرحلة النشأة والطفولة انتى نعرف
عميق أثرها في تكوين شخصية الانسان وتوجيهه،
الى آخر العمر :

« أم اسماعيل » كانت هي التي تكفلت
وحدها ، والله معها ، برعاية وليدها في اقصى
ظروف حرجة ، عند ما تركه ابوه ابراهيم واياها ،
بواد أجرد غير ذى زرع عند اطلال البيت العتيق
بمكة ، وهى وقتذاك موحشة خلاء . ونفذ ما لديهما
من زاد قليل وماء ، فداحت الام المنبوذة تهول
ساعية بين (الصفا والمروة) شوطا بعد شوط
لعلها تلمح على البعد اثرا لحياة واجهدها السعى
وانهكها القلق ، حتى تجلت له آية الله ، فانبتق
الماء من نبع زمزم ، فروى ابنها وبث الحياة فى
الوادي القفر .

وفي رعاية هذه الام شب اسماعيل
واصطفاه الله تعالى لرسالته مع ابيه ابراهيم فعهد
اليهما ان يرفعا القواعد من البيت العتيق ويطهراه
للطائفين والمكفين والركع السجود (4) .

ودخلت ام اسماعيل تاريخنا الدينى بما
كابدت من هموم أمومتها ، فصار سعيها ، من
أجل ولدها ، بين الصفا والمروة ، شعيرة دينية
من شمائر الحج .

عصرنا يظن انه استحدث لنا الاحتفال

اليوم نقذف بما ورثنا من امانا : ذريمة ابليس
وحبالة الشيطان . وتتعدد شخصية المرأة بطول
ما يلح عليها من عقدة الذنب وميراث الخطيئة ،
ترسخها فينا قصص الادباء وقصائد الشعراء وصور
الرسامين وتمائيل النحاتين ، ونسمعها صباح
مساء ، في بيوتنا وفي الحياة العامة .

واقول : ليس في كتاب الاسلام ان ابانا
آدم غوى باغراء زوجه ، وان الشيطان تذرع بها
اليه . الذى في القرآن الكريم ان آدم هو الذى نسى
وعيد ربنا ، وان الشيطان وسوس اليه ، وعصى
آدم ربه فغوى بصريح آيات (طه) :

« ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم
 نجد له عزما » .

الى قوله تعالى :

« فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم
هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا
منها فبدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من
ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى » 115 ، 121 .
ولا يعنى هذا اسقاط التبعة عن زوج آدم ،
بما ينفى اهليتها لاحتمال مسؤولية التكليف ، وذلك
لا يكون فى الشريعة الا لقاصر او سفیه او معتوه
او مجنون .

بل تحمل نصيبها من التبعة اصالة ، لا
بالتبعية لزوجها . بمقتضى كمال انسانيتها . وهكذا
تقرر فى الدين من اول عهد البشرية ، ان تحمل
المرأة الاولى تبعتها من الخطيئة الاولى ، اذ اكلت
مع زوجها آدم من الشجرة المحرمة ، فذهب كل
منهما بنصيبه من الوزر .

وهذا أصل من اصول العقيدة الاسلامية
فى استقلال شخصية المرأة ، تحمل تكاليف رشدتها
وامانة انسانيتها كاملة ، كالرجل سواء بسواء :

(3) آيات الاحزاب 72 ، 73 ، والنجم 38 ، 42 والمدثر 38 ، والطور 21 .

(4) بايجاز من تفسير الامام الطبرى بسنده عن ابن عباس لسورة ابراهيم 37 ، 38 .

مريم « عليها السلام » .

وتأتى فى ختام هذا الموكب الجليل لامهات الرسل والانبياء « آمنة بنت وهب الزهرية القرشية » أم اليتيم الهاشمى محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب . مات أبوه وهو جنين فى رحمها ، فعاشت به وله ، تكفله وترعاه فى السنوات الست الأولى من عمره (6) ثم عاشت ملء الحياة فى قلب ولدها المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وفى رسالته التى وضعت الجنة تحت اقدام الامهات .

(2) المرأة فى مركز القيادة والقودة :

من القرآن الكريم ، اقدم شخصية امرأة عربية فى مركز القيادة والحكم ، ذات مهابة وحكمة وذكاء ، ممثلة فى « ملكة سبا » : تتلقى كتاب النبى سليمان ، يدعواها فيه هى وقومها ، الا يعطو عليه؛ وان يأتوه مسلمين . فلا تقضى فى رسالته براى حتى تقرا كتابه على رجال دولتها واصحاب مشورتها وتسمع رأيهم فيه . وتأخذهم حمية الرجولة بالاعلان عما لهم من قوة وبأس شديد ، يتركون الامر الى الملكة تقضى فيه بما ترى ، اقرارا منهم بالولاء لها والطاعة ، واعترافا بسداد رايها ، وعندئذ تتجلى شخصيتها فى الموقف الصعب ، فتقضى فيه بحكمة تقدير وذكاء انوثة ومهارة سياسية : الحرب تعرض مملكتها للخراب ، ورعاياها الاعزة للذل والهوان ، فليكن الراى أن ترسل الى سليمان بهدية ملكية مغرية ، تمحنه بها لتعلم ما اذا كان نبيا مرسلا كما قال فى كتابه اليها ؟ او انه يدعى النبوة ذريعة الى مآرب سياسية ومطامع دنيوية ، فتتصدى له الملكة بالمتاومة وتلقاه برجالها وجنودها ذوى البأس والحمية ؟

النسوى بعيد الام ، لا يدري اننا نحتفل به من تديم الزمان ، فى موعدة الذى لا يتخلف من كل عام ، حيث يسمى ملايين الحجاج المسلمين بين الصفا والمروة مهرولين ، سبعة اشواط : شعيرة من شعائر الحج ، وليس على النمط العصرى المتبذل ، ضجيج دعاية وصخب اعلان ..

بعد ام اسماعيل ، جدة العرب العدنانية ، تأتى فى القرآن « ام موسى » ودورها فى انقاذه مذكور معروف : وضعت ابان وطاة فرعون الساحقة لبني اسرائيل ، واوحى الله الى ام موسى فأرضعته ووضعت فى تابوت والقت به فى نهر النيل ، فالتقطه آل فرعون الذى هم بذبحه ، لولا أن قالت له امراته ضارعة : « قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا او نتخذة ولدا » ونجا موسى ، وكانت اخته هى التى قصت اثره ولما سمعت انه يابى المراضع ، قالت لآل فرعون :

« هل أدلكم على اهل بيت ياكلونه لكم وهم له ناصحون » ؟

وصدق الله تعالى « ام موسى » وعده : رده اليها كى تقر عينها ولا تحزن . وقص علينا القرآن خبر نجاته ، بفضل نساء ثلاث : امه واخته ، وامرأة فرعون (5) .

« وام المسيح ، مريم » المطهرة المصطفاة : نذرتها امها « امرأة عمران » لعبادة الله ، وهى بها حامل . فلما وضعتها انثى لم ترجع فى نذرها، بل وجهتها لخدمة الله وعبادته ، ليبدأ تاريخ المسيحية بهذه العذراء العابدة فى المحراب ، التى اصطفها الله على نساء العالمين ، وجعلها وابنها آية . وحسب الامومة فخرا ومجدا ان ينتمى نبى المسيحية الى امه ، فهو « المسيح عيسى ابن

(5) آية النساء 1 ، ومعها آيات : الاعراف 98 والانعام 189 .

(6) من السيرة النبوية لابن هشام : 1 - 164 : 178 ط الحلبي .

واتلو آياتها المحكمات ، من سورة النمل ،
اذ تلت كتاب سليمان عليه السلام ، ومقراته
على الملا من اصحاب مشورتها :

« قالت يا ايها الملا افتونى فى امرى ما
كنت قاطعة امرا حتى تشهدون . قالوا نحن اولو
توة واولو باس شديد والامر اليك فانظري ماذا
تامرين ، قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها
وجعلوا اعزة اهلها اذلة وكذلك يفعلون ، وانى
مرسلة اليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون »
النمل 29 ، 35 .

وتم الامتحان : زهد سليمان فى الهدية ،
واستجابت الملكة وقومها معها لداعى الله .
وفى مركز القدوة :

تجلى ملامح شخصية المرأة ، فيما نتلو
من آيات القرآن الكريم فى نساء الانبياء كما مرآة
نوح وامرأة لوط ، ونساء الملوك كما مرآة فرعون
وامرأة العزيز .

الملحظ الهام فى هؤلاء جميعا ، ان تبعة
القدوة ، وهى فى الاسلام تبعة مضاعفة ، تضع
نساء الانبياء والملوك موضع الخبرة ومضرب المثل
للذين كفروا والذين آمنوا ، لا للكافرات والمؤمنات
فحسب ، تقديرا لدورها الخطير فى التوجيه ، من
مركز القدوة ونفاذ اثرها فى الحياة والمجتمع .

« ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح
وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين
فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل
ادخلا النار مع الداخلين ، وضرب الله مثلا للذين
آمنوا امرأة فرعون اذ قالت رب ابن لى عندك
بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ونجنى
من القوم الظالمين ، ومريم ابنة عمران التى احصنت
فرجها فننفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها
وكتبه وكانت من القانتين » .

(3) شخصية البنات :

قدمها القرآن الكريم فى مثل « أخت موسى »

التي قصت اثره بعد ان التقت به امه فى اليم بوحي
من الله جل جلاله ، ثم كانت الاخت هى التى دلت
آل فرعون على ام موسى ، كافلة له ومرضعا .

وفى « ابنتى شعيب » اذ خرجنا تسقيان ،
عوننا لابيها فى شيخوخته ، فلما شق عليهما الزحام
حول ماء (مدين) وتطوع موسى لمساعدتهما ، ولم
يفتقهما الالتفات الى قوته ومروءته وامانته ، فكان
ان اقترحت احدهما على ابيها ان يستأجره « ان
خر من استأجرت القوى الامين » فأرسلها ابوها
اليه تستدعيه ، فجاءته تمشى على استحياء وابلفته
دعوة ابيها فاستجاب ، وعرض عليه شعيب ان
يزوجه احدى ابنتيه هاتين على ان ياجره ثمانى حجج
او عشرة وقبل موسى وتزوج من ابنة شعيب فكانت
له زوجا سالحة واهلا . صحبتته ، بعد ان قضى
لابيها الاجل ، فى رحلته فى برية سيناء ، واحتملت
معه مشقة السفر وجذب القفر وقسوة البرد ،
حتى تجلى له الله سبحانه واصطفاه لرسالته .
القصص : 23 - 30 .

القصة القرآنية تمثل لنا الفتاة فى برها
بأبيها ، ومشاركتها فى حمل اعباء العيش ،
وخروجها عاملة ساعية لاهلها . ثم هى تجلو من
فطرة الانثى حياءها العذرى ، وتلطفها فى التعبير
عن اعجابها بشخصية شاب ترنو ان يكون لها
زوجا سالحا . وكانت موازينها القوة والامانة
والمروءة ، لا المظهر والزى والثروة والجاه . .

ولعله لا يفوتنا ان القرآن الكريم فيما بين لنا
من موضع العبرة فى قصص النساء الخاطئات ،
لم يذكر فيهن فتاة خاطئة او منحرفة ساقطة . فكأنى
فهمت من الشخصية القرآنية للفتاة ، ان العفة
والحياء اصل فيها وفطرتها السوية التى فطرها
الله عليها .

وهذا نقيض ما زعمه بعض المؤلفين المحدثين
عن (المرأة فى القرآن الكريم) .

« والسلام على من اتبع الهدى »